Article

CC BY NC

ISSN 2831-5049
Vol. 3, No. 2, 2024, p.1-18
journal.maqasid.org
DOI: 10.52100/jcms.v3i2.143
Received : April 5th 2024
Revised : June 30th 2024
Accepted : July 3rd 2024

قيم الفضل في الأسرة ومقصد تأسيس العمران

Farid Chokri
Hasan II University, Casablanca, Morocco
chokrifarid@gmail.com

Abstract

The family represents one of the most important foundations on which societies are built, as it represents the psychological and social space in which the individual is initially created, and qualified to disperse throughout society and exercise his role in establishing closeness and harmony between man and universe which is called *umran*. Therefore, Islam exerts great emphasis on the family and considers it one of the most important issues that the Qur'an accompanies with several concepts, values, and worldviews. The examiner of the Qur'anic view must note that the Qur'an deals with the subject of the family within an objective-oriented framework based on establishing the *umran*. Therefore, it can be said that the purpose of establishing the family and giving it a moral framework has an *umranic* objective in the light of the Qur'an and its guidance. This article emphasises the importance of the family in Islam as a means and the essence of *umran* and it highlights the role of the Qur'anic values of virtue and grace in regulating the family and establishing *umran*. This article also decentralizes the contractual aspect such as in the value of *'adl* (justice) and centralizes the aspect of *tarahum* (compassion) such as the value of virtue, grace, and bounteousness as founding constituents for the family and *umran* to protect people from committing injustices and ensuring the continuity and stability of the familial and human *umran* at large.

Keywords : values; virtue; family; Islam; maqasid; umran.

الملخص

تمثّل الأسرة أحدَ أهمّ الأسس التي تقوم عليها المجتمعات باعتبارها الفضاء النفسي والاجتماعي الذي يُصنَع فيه الفرد ابتداء، وفيه يؤهّل للخروج إلى المجتمع ولممارسة الدّور العمراني، ولذلك اعتنى الإسلام بالأسرة وجعلها أحد أهمّ القضايا التي واكبها القرآنُ بمفاهيمه وقيمه ورؤيته للعالم. والمتفحّص للنّظر القرآني لابدّ أن ينتبه إلى أنّ القرآنَ إنّما يتناول موضوع الأسرة في إطار مقصدٍ هو: تأسيسُ العمران، ولذلكَ يمكن القولُ إنّ مقصد تأسيس الأسرة وتأطيرها قيَميا هو مقصدٌ عمراني يرتبطُ أشدّ الارتباط بالغاية العمرانية التي

Corresponding Author
Name : Farid Chokri
Email : *chokrifarid@gmail.com*

جاءَ القرآن ليمكّن الإنسان من أدوات تحقيقها. ولذلك كان من الضروري حين الحديث عن الأسرة في الإسلام النّظرُ إليها باعتبارها نواةَ العمران، وباعتبارها أداة لتحقيق مقصد العمران. كما ان الوقوف على دور قيم الفضل القرآنية المنظّمة للأسرة في تأسيس العمران، مما ينبغي تناولها في عصرنا الحالي، وذلك لأنّ الجانب التعاقدي (قيم العدل) قد بات يطغى على الجانب التراحمي (قيم الفضل) التي تعتبر مركزية في تأسيس العمران واستمراره و استقراره، ومحلُّ تأسيسها عند الفرد هو الأسرة. كما هي الأساس الذي يحمي الإنسان من الوقوع في (أخلاق العضل) وهي الظلم المؤذن بخراب العمران الأسري و البشري.

الكلمات المفتاحية: قيم الفضل؛ الأسرة؛ الإسلام؛ المقاصد؛ العمران

المقدمة

إنّ لكل موضوع مقدّمات يتأسس عليها، تكون بمثابة تمهيدٍ له، وتكون هي الأساس الذي ينبني عليه البيان والتحصيل، ولذلك فإنّ الشروع في بيان الموضوع وتحصيل الغاية منه يقتضي أولا بسط بعض المقدّمات التي عليها يتأسس الموضوع.

والمقدّمات التي يتأسس عليها هذا الموضوع هي تعريف عناصره المفردة قبل الشروع في نظم هذه العناصر في ناظم واحد كليّ يمثّل الموضوع؛ وعناصرُ هذا الموضوع هي: الأسرة والعمران وقيم الفضل والعدل والعضل، وهي العناصر التي ينبغي تعريفها وتقديم مفهوم لها.

ولأنّ الحاجة إلى التعريف اللغوي في هذا المقام غير قائمة، كما أنّ الحاجة إلى تعريف العلماء أو اللغويين أو تتبع الاصطلاحات غير قائمة كذلك، لأنّ غرض الموضوع ليس هو بناء تعريفات لهذه المصطلحات وتتبع تطوّرها التاريخي، بقدر ما هو تعريفها وتقديم مفاهيم لها حسب ما يقتضيه البحث، فإنني سأكتفي بتقديم تعريفات لهذه المصطلحات حسب استعمالها في هذا البحث، وذلك ليتسنى للقارئ تتبّع النّظم والنسيج الذي سينظمه الباحث، وينسجه هذا المقال خلال مرحلة البيان والتحصيل.

إنّ الوقوف على دور قيم الفضل القرآنية المنظّمة للأسرة في تأسيس العمران، هو أحد أهمّ المواضيع التي ينبغي تناولها في عصرنا الحالي، وذلك لأنّ الجانب التعاقدي (قيم العدل) قد بات يطغى على الجانب التراحمي (قيم الفضل) وهو الأمر المؤذن بخراب العمران الأسري والعمران البشري، وذلك لأنّ قيم الفضل هي الأساس الذي يحمي الإنسان من الوقوع في (أخلاق العضل) وهي الظلم، والظلم

Copyright © 2024 JCMS

وكما قال صاحب المقدّمة مؤذن بخراب العمران (ابن خلدون، ١٩٨٢، ج١، ص٥١). فأهميّة الموضوع تتمثل في التأكيد على ضرورة مدّ الإنسان بقيم الفضل لكونها قيما مركزية في تأسيس العمران، ومحلُّ تأسيسها عند الفرد هو الأسرة.

الدراسات السابقة

إنّ تناول هذا الموضوع من زاوية ربط الأسرة بالمقصد العمراني ليس قولا جديدا ولا رأيا مستحدثا، ولذلك فإنّ لهذا المقال دراسات سابقة قد شاطرتهُ ليس فقط موضوع الأسرة، بل وزاوية النظر العمرانية، نذكر منها:

١. كتاب تحت عنوان: مقصد الأسرة في القرآن: من الإنسان إلى العمران. للدكتورة جميلة تلوت، وهو في أصله دراسة شاركت بها ضمن سلسلة الدورات العلمية لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مقاصد القرآن الكريم ٣، مجموعة بحوث، تحرير: محمد سليم العوا، ٢٠١٨، ثم نشر مستقلا عن نفس المؤسسة في السنة نفسها.

وفيه سعت الباحثة بأسلوب منهجي متماسك إلى رصد مقاصد الأسرة في القرآن الكريم وترتيبها باعتبار الغايات التي ينشدها الاجتماع البشري، وإلى ربط هذه الغايات بمقتضيات الإنسان وأحوال العمران، وقد رصدت الباحثة جملة من مقاصد الأسرة المرتبطة بالعمران منها مقصد التزكية ومقصد الإحصان ومقصد السكن ومقصد التعارف.

٢. مقال تحت عنوان : الأسرة في القرآن الكريم وأثرها في تحقيق العمران للدكتورة فاطمة الزهراء دوقيه نشر بالموقع الإلكتروني لمركز الشهود الحضاري للدراسات الشرعية والمستقبلية في ٣ مارس ٢٠٢٣.

وفيه رصدت الباحثة -بأسلوب افتقر نوعا ما إلى النظر المنهجي الأصيل- بعض أسس وقيم الأسرة ومنها المودة والرحمة والسكن والقوامة والشورى... وهي القيم التي أشارت الباحثة إلى دورها في تأسيس العمران، باعتبار الأسرة المحضن الأول للفرد.

والجديد في هذه الدراسة التي أقدّمها في هذا المقال هو كونها تتناول -وكما أسلفت الذكر- موضوعا محدّدا هو قيم الفضل في الأسرة وارتباطها بمقصد العمران، فالموضوع لا يتناول قيم الأسرة جميعها

Copyright © 2024 JCMS

أو بعضها في ارتباطها مع العمران – كما هو حال الدراسات السابقة- بل يجعل المحور هو قيم الفضل التي جاء القرآن ليؤسّسها على مستوى العلاقة بين الزوجين. ويربط المقال بين قيم الفضل وبين المقصد العمراني الذي هو أساس الرؤية القرآنية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا المقال هو امتداد لمشروع لازمني ولازمته منذ سنوات، والذي أثمر كتابيّ الموسومين بـ: الأسرة بين العدل والفضل (شكري، ٢٠١٢)، والأسرة في القرآن الكريم: حصن بالعدل حضن للفضل (شكري، ٢٠١٨) .

أولا- المفاهيم التأسيسية

١. مفهوم الأسرة

تمثّل الأسرة أحد مظاهر الاجتماع البشري، ولعلّها أقدم اجتماع بشري عرفه التاريخ، فانطلاقا منها تأسست العائلة، ثمّ القبيلة، ثمّ المجتمعات الأوسع.

الأسرة آية كونية مجلوة كما وردت في هذه الآية القرآنية المتلوة. ﴿**وَمِنْ اٰيٰتِهٖٓ اَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ اَنْفُسِكُمْ اَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوْٓا اِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَّرَحْمَةً ۗاِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ**﴾ (الروم: ٢١).

والأسرة، وباتفاق الأديان السماوية عموما والدين الإسلامي، على وجه الخصوص إنّما تتكون من ذكر وأنثى يجمع بينهما إطارٌ شرعي يصون هذه العلاقة هو الزواج، (تِلوت، ٢٠١٧)، فهي مجتمع نواة مبني في التصوّر القرآني على علاقة بين ذكر وأنثى يؤسّسها التعاقد (الميثاق الغليظ) ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ (النساء: ٢١)،[١] ويؤطّرها التراحم (الفضل) ﴿**وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ**﴾ (البقرة: ٢٣٧).[٢]

---

[١] يفسر الطبري هذا الميثاق الغليظ بقوله "الميثاق الذي عُنِي به في هذه الآية، هو ما أُخِذ للمرأة على زوجها عند عقد النِّكاح، من عهدٍ على إمساكها بمعروفٍ، أو تسريحها بإحسانٍ، فأقرّ به الرجلُ؛ لأن الله جلَّ ثناؤُه بذلك أوْصَى الرجال في نسائهم.". أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (٢٠٠١)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر - د عبد السند حسن يمامة دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصرالطبعة: الأولى، ج ٦، ص٥٤٦. وأما الشعراوي فله التفاتة لطيفة لوصف العلاقة الزوجية بالميثاق الغليظ يقول "لأنه أباح للزوجين عورات الآخر، في حين أنه لم يقل عن الإيمان إنه ميثاق غليظ، قال عنه: "ميثاق" فقط، فكأن ميثاق الزواج أغلظ من ميثاق الإيمان" تفسير الشعراوي – الخواطر ٢ص٩٨٩محمد متولي الشعراوي مطابع أخبار اليوم

[٢] يقول رشيد رضا "فسروا الفضل بالتفضل والإحسان، وجعلوه للترغيب في العفو. وقال الأستاذ الإمام: المراد به المودة والصلة، أي ينبغي لمن تزوج من بيت ثم طلق ألا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم!". محمد رشيد بن علي رضا، (١٩٩٠)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٢، ص٣٤٣. أما ابن عاشور فيقول "وقوله: ولا تنسوا الفضل بينكم لزيادة الترغيب في العفو بما فيه من التفضل الدنيوي، وفي الطباع السليمة حب الفضل فأُمروا في هاته الآية بأن يتعاهدوا الفضل ولا ينسوه؛ لأن نسيانه يباعد بينهم وبينه، فيضمحل منهم، وموشك أن يحتاج إلى عفو غيره عنه في واقعة أخرى، ففي تعاهده عون كبير على الإلف والتحابب، وذلك سبيل واضحة إلى الاتحاد والمؤاخاة

Copyright © 2024 JCMS

والزوجية بهذا المعنى هي المصنع الذي تصنع في فضائه الأسرة ثمّ المجتمع، لأنّ كلّ علاقة بين ذكر وأنثى لابدّ وأن تترتب عليها علاقات أخرى مثل الأبوة والبنوة والمصاهرة والعمومة والخؤولة... يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُوْنَ لِلّٰهِ مَا يَكْرَهُوْنَ وَتَصِفُ اَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ اَنَّ لَهُمُ الْحُسْنٰى لَا جَرَمَ اَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَاَنَّهُمْ مُّفْرَطُوْنَ﴾ (النحل: ٧٢). وهي العلاقات التي تنشأ عنها المجتمعات الممتدة، ولذلك كانت الأسرة نواة المجتمع ونواة العمران.

ذلك أن العمران يقوم على الاجتماع الإنساني والاجتماع الإنساني يحافظ على النوع الإنساني الذي تعتبر الأسرة هي منشؤه ومصدره ومحضنه: إنجابا ورعاية وتربية. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء:١).

ولهذا فالاستثمار القيمي في الإنسان في محضن الأسرة الإنجابي وفضائها الإيجابي حيث ينشأ ويتربى "الولد الصالح" هو الاستثمار الحقيقي في العمران حيث يتحقق له وبه الاستقرار والاستمرار.

و بما أن الأسرة نواة العمران فهي وحدته القياسية وبما أنها محضن القيم -حصنا بالعدل وحضنا للفضل- التي تصدرها إلى المجتمع التي يقوم عليها العمران وتنتجها عبر وسائط تربوية، فإنه من المناسب، بل من اللازم أن تحلق الأسرة هي نفسها في فضاء قِيَمي يتحقق بها التماسك الأسري ويحقق لها الامتداد الاجتماعي والاستثمار العمراني.

و إذا كانت الأُسرة قوام العمران والقِيَمُ قوام الأُسَرة إذن فلا قيام للعمران إلا بقيام الأسر على القِيَم.

والانتفاع بهذا الوصف عند حلول التجربة... والنسيان هنا مستعار للإهمال وقلة الاعتناء كما في قوله تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ (السجدة: ١٤) وهو كثير في القرآن". محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، (١٩٨٤)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، تونس: الدار التونسية للنشر ، ج٢ ص-٤٦٥-٤٦٤.

Copyright © 2024 JCMS

٢. مفهوم العمران

إنّ معنى العمران وكما نقصده في هذا البحث، هو إعمار الأرض وأداء واجب الاستخلاف على نحو صحيح، فالعمران هو تحقيق الاجتماع البشري على وفق ما يأمر به الله سبحانه وتعالى، انطلاقا من القيم الحاكمة التي يبوح بها القرآن والتي ترشّد السلوك الفرداني وتسدّده.

ولذلك فإن معنى العمران هو تقييد الفردانية والتأسيس للسلوك الاجتماعي عند الفرد، على نحوٍ يجعل الفردَ الجزء الذي يعمل لحساب الكلّ (المجتمع) وليس على حساب الكلّ.

٣. مفهوم العدل والفضل

يمثّل العدل والفضل مفهومين قرآنيين، يشير أوّلهما إلى أخلاق التعاقد ويشير الثاني إلى أخلاق التراحم، أمّا المقصود بأخلاق التعاقد فهو القيام بالحد الأدنى من التصرّفات على مستوى إيفاء الحقوق، ومعنى ذلك أن العدل هو: أن تأخذ ما لك وتعطي ما عليك دون أن تزيد على ذلك شيئا، وهو معنى قريب من المعنى القرآني الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ (فاطر: ٣٢).

فالعدلُ اقتصادٌ في أداء الحقوق لأنّه مبني على المساواة بين (الذات والآخر) في سلّم الحقوق والواجبات. وعلاقة التعاقد القائمة على محض العدل دون حضور لجانب الفضل فيها، هي علاقة قائمة على المادية والمنفعة المحضة (المسيري، ٢٠٠٩).

أما الفضل فمعناه أن تأخذ أقلّ مما هو لك وأن تعطي أكثر مما يجب عليك، ومعنى ذلك أن تكون سابقا بالخيرات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (فاطر، ٣٢)[٣]. فالفضل بهذا المعنى يشير إلى أخلاق التراحم التي تبنى على نكران الذات، وعلى بلوغ الحد الأقصى في إيفاء الحقوق. والسبقُ إلى الخيرات مبني على تفضيل الغير على الذات في سلّم الحقوق والواجبات.

[٣] يقول ابن تيمية: «والقرآن بيّن أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان؛ أبرار مقتصدون ومقربون سابقون، فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات، والثانية لا تحصل إلّا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات» ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد. الطبعة الثانية، السعودية: دار العاصمة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ج ٣، ص ٢٢٩

Copyright © 2024 JCMS

يقول الامام الحرالي "الإحسان هو البلوغ إلى الغاية في حسن العمل فيكون مع الخلق رؤية المرء نفسه في غيره فيوصل له من البر ما يجب أن يفعل معه" (الحرالي، ١٩٩٧، ص ٢٢٤-٢٢٥).

والتراحم هو أحد مراتب العلاقات الاجتماعية التي لا تقوم على الأبعاد المادية المحضة وعلى مجرد المنفعة، بل تتجاوز ذلك إلى الأبعاد الروحية التي تستحضر قيم الإيثار والتعاون بغير تمركز لقيمة المنفعة.

٤. مفهوم العضل

أصل كلمة عضل هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٩). والعضل في الآية بمعنى التضييق والحبس والشدة، وهو معنى يؤول إلى الظلم (الكفوي، ١٩٩٨)، ولذلك استعملت العضل بمعنى الظلم، وقد جاء هذا الاستعمال مراعاة للجناس بين لفظ "عضل" ولفظي "عدل" و"فضل".

والعضل ظلمٌ ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ (فاطر، ٣٢)، وذلك لكونه مبنيا على تفضيل الذات على الغير في سلّم الحقوق والواجبات.

ثانيا- البيان: مراتب العلاقات الإنسانية

إنّ مراتب العلاقات الإنسانية هي في مجموعها ثلاث مراتب:

أمّا المرتبة الأولى فهي مرتبة الفضل، وهي مرتبةٌ يحكمها الإحسان -كما أسلفت الذكر- ولهذه المرتبة قيَمها الخاصّة التي تتميّز عن قيم مرتبة العدل بالكرم وأداء النافلة، وهي مرتبةٌ يؤطّرها التراحم -كما سبق وأشرت-

وأمّا المرتبة الثانية فهي مرتبة العدل، وهي مرتبةٌ تؤطّرها مفاهيم التعاقد وقيمه، حيث تدور قيَمها على أداء الفرض الأخلاقي دون النافلة، وتقتصر على الاقتصاد في أداء الواجب دون سبق بالخيرات.

Copyright © 2024 JCMS

والثالثةُ هي مرتبة العضل، وهي مرتبةٌ يسودها الجور والظلم في أداء الواجبات واستيفاء الحقوق، وتسود هذه المرتبة قيمُ الفردانية وتلغى فيها القيم المعزّزة للاجتماع البشري.

ويجمع هذه المراتب نصّ نفيس للإمام ابن حزم يقول فيه: "حدّ العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه، وحدّ الجور أن تأخذه ولا تعطيه، وحدّ الكرم أن تعطي من نفسك الحقّ طائعا وتتجافى عن حقّك لغيرك قادرا، وهو فضل أيضا... والفضل فرض زادت عليه نافلة" (ابن حزم، ١٩٦١، ص٣١).

ثالثا- الأسرة ومرتبة الفضل في التصوّر القرآني

١. الأسرة وقيم الفضل في القرآن

إذا رجعنا إلى القرآن باعتباره الفضاء المؤطر للتصوّر الإسلامي للوجود، فإنّنا سنجد أنّ الأصل في الأسر قيامها على قيم الفضل، وأنّ التعاقد فيها (الميثاق الغليظ) ليس مؤسّسا على العدل وحسب، بل وعلى الفضل أيضا، إلى الحدّ الذي يمكن أن نقول معه إنّ الفضل هو الأصل وإنّ العدل هو الاستثناء، وليس ذلك في مرحلة الوفاق وحسب، بل وفي مرحلة الشقاق والافتراق.

والمستقرئ للآيات القرآنية لابدّ أن يقف على هذه الحقيقة.

جاء في القرآن الكريم في سياق النشوز قوله تعالى: ﴿**وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا**﴾ (النساء:١٢٨).

وجاء في سياق الطلاق قوله تعالى: ﴿**وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ**﴾ (سورة البقرة: ٢٣٧).

Copyright © 2024 JCMS

وعن متعة الطلاق قوله الله تعالى ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦) و قوله تعالى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١).[٤]

وفي السياق ذاته قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: ١).[٥]

فالتصوّر القرآني للعلاقة الزوجية التي هي أساس الأسرة وركيزتها قائم على منطق الفضل، في مرحلة الوفاق، بل وفي مرحلة الشقاق. وليس هذا حكرا على العلاقة بين الزوجين، بل إنّ منطق الفضل يمتدّ ليشمل الروابط والعلائق الأسرية المختلفة، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤).

و قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ﴾ (الأحقاف:١٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلٗا كَرِيمٗا﴾ (الإسراء:٢٣).[٦]

---

[٤] قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: "لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [الْبَقَرَةِ:٢٣٦] قَالَ رَجُلٌ: إِنْ شِئْتُ أَحْسَنْتُ فَفَعَلْتُ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَفْعَلْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] . ابن كثير إسماعيل بن عمر. (١٩٩٩) تفسير القرآن العظيم. ج ١، ص ٦٦٠.تحقيق: سامي بن محمد السلامة. الطبعة الثانية، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.

قال القرطبي "وقوله على المتقين تأكيد لإيجابها. لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراك به ومعاصيه وقد قال تعالى في القرآن: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [البقرة: ٢]". القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. (١٩٦٤). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الطبعة الثانية، القاهرة: دار الكتب المصرية، ج ٣، ص ٢٠٠.

[٥] رغم أن البيت عادة ما يكون في ملكية الزوج، فإن الله عز وجل لم ينسبه إلى الزوج في خطابه ولكنه نسبه إلى المرأة المطلقة، رغم أنها لا تملكِه في الغالب حتى في حالة الزواج. لكن الله سبحانه أثبت لها الملكية في سياق الطلاق، ومنع المطلّق أن يخرجها من البيت لأنه بيتها. وفي ذلك إشارة إلى أن المطلقة وإن كانت لا تمتلك البيت بالميزان المادي عدلاً وحساباً فإنها تمتلكه بالميزان المعنوي فضلاً واحتساباً، فالبناء الحجري الذي يملكه الزوج عينيا أثث بمشاعر زوجته وعاطفتها وتفانيها وتضحياتها فاستحقت بذلك ملكية البيت ولو معنويا.

[٦] يقول البقاعي« ولما أمر للواحد الحقيقي بما ينبغي له، وكان لذلك درجتان: أولاهما الإيمان، وأعلاهما الإحسان، فصار المأمور بذلك مخلصا في عبادته؛ أمره بالإحسان في خلافته، وبدأ بأولى الناس بذلك، وهو من جعله سببا لإيجاده فقال - مشيرا إلى أنه لا يرضى له من ذلك إلا درجة الإحسان،" البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن. (١٩٨٤) .نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي،.ج ٥، ص ٢٧٦.

Copyright © 2024 JCMS

أما قوله عزّ وجلّ: ﴿**إِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ**﴾ (لقمان: ١٥).[٧]

فالإحسان والفضل من الأبناء تجاه الآباء مأمور به حتى في لحظات الشقاق والافتراق العقدي والديني وهو أشدّ أنواع الخلاف، حيث يأمر الله عز وجل بمصاحبة الآباء بالمعروف والإحسان إن كانا مشركين، بل وإن كانا داعيين إلى الشّرك.

٢. الأسرة وترسيخ قيم الفضل في الفرد

إنّ الأسرة في التصوّر القرآني هي فضاء يؤسَّس فيه الفرد على مبادئ العدل ابتداء وعلى قيم الفضل انتهاء، وعلى تجنب أخلاق العضل ابتداء وانتهاء، فالمراتب التي ينبغي أن يتحرّك في فضائها السلوك الفردي داخل الأسرة مرتبتان هما: مرتبتا العدل والفضل، وليس مسموحا للفرد أن يتحرّك داخل مرتبة العضل، لأنّ التحرّك ضمنها هو تعدّ لحدود الله: ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ**﴾ (الطلاق: ١).[٨]

والأسرة بهذا المعنى هي المصنع الذي تصنع في فضائه المنظومة القيمية للأفراد، حيث تؤدي الأسرة دور تأسيس قيم العدل والفضل في السلوك الإنساني، فالزوج مأمور بأداء الفضل والأب مأمور بأداء الفضل والابن مأمور بأداء الفضل، وكلّ فرد في الأسرة مأمور بالتحرّك ضمن مرتبة الفضل في حالات الوفاق والشقاق، لا يتعدّاها إلا إذا استدعى موقف ما العودة إلى مرتبة العدل، دون هبوط إلى مرتبة العضل التي حرّمها الله على نفسه وجعلها بين الناس محرّمة.[٩]

ولا شكّ أن استنبات الأفراد في فضاء قيمي قائم على مبادئ الفضل، لا بدّ وأن يؤدي إلى صناعة إنسان تترسّخ في كيانه مبادئ الفضل التي تؤطر سلوكه داخل العالم.

---

[٧] والمعروفُ كما قال الحرالي: "ما أقره الشرع وقبله العقل ووافقه كرم الطبع" الحرالي، ص ٤٠٠.

[٨] ولم يكتف القرآن الكريم من التحذير من الوقوع في العضل تصرفا وسلوكا، بل امتد الى التحذير منه نية و إرادة. سواء كان إمساكا أو مراجعة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة٢٣١) وقوله تعالى ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ (الطلاق: ٦)، وقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾ (البقرة: ٢٢٨)

[٩] جاء في الحديث القدسي: "يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا". أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

Copyright © 2024 JCMS

والأسرة بهذا المعنى هي المصنع الأوّل الذي يُصنع فيه الإنسان، وفيه تبنى منظومته الأخلاقية والقيمية فهي الفضاء الأقدر على ترسيخ قيم العدل والفضل في السلوك الإنساني.

٣. حاجة الأسرة إلى قيم الفضل

إنّ القيم هي الأسس التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية، ولا سبيل لإقامة هذه العلائق بغير إطار قيمي ينظمها ولذلك كانت قيم العدل والفضل أهمّ حصن يؤطّر الأسرة ويصون روابطها في حالات الوفاق والشقاق.

والحاجة إلى قيم العدل والفضل في الفضاء الأسري هي حاجة ضرورية، ذلكَ أنّ العدل هو الأداة التي تضمن للعلاقات الإنسانية استقرارها، فبالعدل تستقرّ الذات الإنسانية وتتحقّق السكينة، لأنّ ضمان الحقوق والواجبات على نحوٍ من التساوي يحقّق للنفس البشرية الاستقرار، لأنّ الذات الإنسانية مجبولة على كره من يظلمها.

وإذا كان العدل هو القيمة المحقّقة للاستقرار فإنّ الفضل هو القيمةُ المحقّقة للاستمرار، فبه دوام العلاقات الإنسانية، وسبب ذلك أن العدل شديد الدقّة وقد يخطئه المرء فيقع في العضل، وفي هذا الصّدد يقول الإمام ابن تيمية: "وأما معرفة العدل والحكم بين الناس به فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس ولهذا يوجد الذي يصلح بين الناس بالإحسان خلق كثير وأما الذي يحسن أن يفصل بينهم بالعدل فناس قليل" (ابن تيمية، ١٩٩٩، ج٢، ص١٠٨).

ولذلك كانت إقامة العلاقات الإنسانية على الفضل أيسر، لأنّ الفضل وكما قال الإمام ابن تيمية يحسنه كثير من الناس، أما العدل فلدقّته لا يحسنه إلا قلّة منهم.

ولما كان الأمر كذلك، كان الاكتفاء في العلاقات الإنسانية بالعدل مؤذنا بوقوع الظلم والعضل لخفاء العدل ولدقّته، ولاحتمال أن يخطئ الإنسان العدل فيقع مباشرة في العضل.

Copyright © 2024 JCMS

فحاجة الأسرة إلى الفضل حاجة ضرورية، حتى إذا أخطأ الإنسان الفضل امتصّ العدل صدمة السقوط فلم يقع الإنسان في مرتبة العضل.[١٠]

ويجدر التنبيه إلى أن الفضل هو عدل وزيادة إذا كان التفضل من النفس إلى الغير أما إذا جرى التفضيل بين متنازعين من فرد ثالث فذاك عين الظلم، ولهذا يقول الراغب الأصفهاني: «الإفضال والإحسان أشرف من العدل إذا كان الحكم بينك وبين غيرك، فأما إذا حكمت بين اثنين فليس إلا العدل، وإنما الإحسان إلى المتحاكمين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ (المائدة:٤٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء:٥٨)، وقال لمن له الحق: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧) (الأصفهاني، ٢٠٠٧، ٢٥٢).

رابعا- الأسرة ومقصد العمران

١. الأسرة وسيلة لإقامة مقصد العمران

تمثّل الأسرة وكما أشرت سلفا النقطة التي انطلق منها الاجتماع البشري، فهي النواة الأولى التي تأسس في ظلها الجانب الاجتماعي للإنسان، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء:١).

وتأسيسُ الأسرة في التصور القرآني على قيم الفضل هو في واقع الأمر تأسيس للعمران على قيم الفضل، وذلك لأنّ الأسرة هي الفضاء النفسي والقيمي الذي يخضع فيه الفرد للتأهيل الاجتماعي، فالقيم التي يتلقّاها الفرد في الأسرة هي القيم التي يقارب من خلالها العالم فيما بعد، ولذلك فإنّ تأسيس الأسر على قيم العدل والفضل ليس تأسيسا للأسرة وحسب، بل هو تأسيس للمجتمع كذلك، ومن هذا المنطلق كانت الأسرة إحدى أهمّ وسائل إقامة مقصد العمران.

---

[١٠] وقد ترد أحيانا بعض أحكام الأسرة متدثرة بقيم العدل والفضل ترغيبا وتنويها وقيم العضل ترهيبا وتنبيها٠ في الآية القرآنية الواحدة كما في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة البقرة ٢٢٩).

Copyright © 2024 JCMS

وكون الأسرة وسيلةً لإقامة العمران لا يرجع إلى دورها المحوري في حفظ النسل وحسب، بل إلى أدوار شتى تؤديها الأسرة، فالأسرة هي فضاء لحفظ الدين بزرع قيمه في أفراد الأسرة ئي ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢). وهي فضاء لحفظ النفس ووقايتها من التلف ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ (الإسراء:٣١)، وفضاء لحفظ العرض﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق:١)، وهي كذلك فضاء لحفظ المال ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

أما حفظ العقل فيدخل فيه ما نحن بصدد تأسيسه، من تأكيد على الدور المحوري للأسرة في إقامة الفرد على قيم العدل والفضل، فالتأطير القيمي بمُثل وقيم المنظومة القرآنية هو حفظ للعقل وصيانة له عن المنظومات الفاسدة التي تنتجها المادية المعاصرة، والتي تؤذن بخراب العمران.

والضروريات الخمس هي في أصلها مقوّماتُ العمران[١١] إذ بحفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ العرض وحفظ المال، يقوم العمران ويتأطّر على نحو صحيح الاجتماع البشري، ولذلك كانت الأسرة أحد أهمّ الوسائل إلى إقامة العمران.

وورود الآيات في القرآن على نحوٍ يظهر دور الأسرة في حفظ الكليات الخمس وإقامتها هو دلالةٌ على أنّ الأسرة هي وسيلة لإقامة العمران، لأن هذه الكليات -هي وكما أسلفنا الذكر- مقومات العمران، وتقديم الأسرة في التصور القرآني بصورة الطرف الفاعل في حفظ هذه الكليات، هو دلالةٌ على أنّ الأسرة هي أحد الفضاءات التي تصنع برحابها وسائل تحقيق مقصد العمران.

[١١] هي ضروريات عمرانية لا يقوم العمران إلا بها. فالمقوم الروحي والاعتقادي لقيام العمران بقيم الإيمان هو الدين. والمقوم البشري لضمان استقرار العمران واستمراره هو النفس والنسل والمقوم المعنوي لتشييد العمران وتسديده هو العقل والمقوم المادي لقيام العمران بنيانا ومعمارا هو المال.

Copyright © 2024 JCMS

٢. الحاجة إلى قيم الفضل في استمرار العمران

إنّ قيم الفضل هي أحد عناصر المنظومة الإسلامية التي تصنعُ في فضاء الأسرة، وأهميّة هذه القيم للأسرة هي في كونها تضمن استمرار الأسر واستقرارها على السكينة والمودة، وذلك لما بيّنته من كونها قيما مقدورا على أدائها من طرف معظم الناس، على خلاف قيم العدل التي تدقّ مسائلها إلى حدّ يخفى على معظم الناس ممّا يؤذن بالسقوط في العضل، فإذا كان العدل يقيم الأسرة فإنّ الفضل يديمها.

وأهميّة قيم الفضل في العلاقات الإنسانية ليست محصورة في الأسرة، بل تتعدّى هذا الإطار الضيق إلى العلاقات الإنسانية الممتدة، ولذلك نجد الحثّ على مرتبة الفضل والإحسان في القرآن غير محصور بالأسرة، بل يمتدّ ليشمل العلاقات الإنسانية كلّها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠) [١٢]، ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

ويقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ (البقرة:١٧٨).

والآيات في الحث على الإحسان والفضل في العلاقات الإنسانية على اختلافها كثيرة في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥). يقول ابن عاشور: "وفي حذف متعلق أحسنوا تنبيه على أن الإحسان مطلوب في كل حال ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء)"[١٣] (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج٢، ص٢١٦).

---

[١٢] فهذه الآية المكية كلية تشريعية تأصيلية لقيم العدل و الفضل ، بطعم عقدي وقداعتُبرت "قطب القرآن وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه" فخر الدين الرازي، (١٩٩٩)، مفاتيح الغيب، ، دار إحياء التراث العربي.ج٢٠ص٣٦٣. ولقد خصص مجموعة من العلماء هذه الآية بتآليف مخصوصة مثل: نهاية الإحسان في تفسير قوله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"، لابن الموصل. و قلائد العقيان في قوله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"، مرعي بن يوسف الكرمي، و فتح الرحيم الرحمن في تفسير آية "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"لأبي الحسن علي الشربيني..

[١٣] أخرجه مسلم في الصيد، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل، ١٩٥٥، ج ٢، ص ١٥٤٨.

Copyright © 2024 JCMS

وأهميّةُ قيم الفضل للمجتمعات تتمثّل في كونها تؤسّس لقيم التراحم في مقابل قيم التعاقد التي تتأسس عليها المجتمعات الغربية المادية، والتي تفرغ المجتمعات من الروح العمرانية التي يتأسس عليها مبدأ الاستخلاف.

والحاجة إلى الأسرة هي من هذا الباب، من باب تأسيس أفراد المجتمع على قيم التراحم والفضل لممارستها في المجتمع، فالأسرة هي مصنع الفرد الذي يتأهل داخله الإنسان لممارسة دوره الاجتماعي، ولذلك فصناعة مجتمعات التراحم أو مجتمعات التعاقد إنّما محلّها الأسرة. فإذا كانت الأسر قائمة على الفضل فالمجتمعات المتفرعة عنها لابدّ أن تكون مجتمعات تراحم، وإذا كانت الأسر قائمة على محض العدل، فلا بدّ أن تكون المجتمعات المتفرعة عنها مجتمعات تعاقد. ومقصد إقامة العمران رهين بتأسيس مجتمعات التراحم، التي تصنع تعاقدها في إطار مبادئ التراحم.

أما مجتمعات التعاقد المحض فلا بدّ أن ينتهي بها المآل إلى خراب العمران، وذلك لما ذكرناه من دقة العدل وخفاء صوره، وهو الأمر الذي يجر مجتمعات التعاقد إلى مرتبة العضل وهو الظلم المؤذن بخراب العمران. فالتعاقد المحض إذا لم تحمه قيم الفضل ومبادئ التراحم سيجرّ لا محالة المجتمعات إلى المادية المبنية على المنفعة المحضة، دون اعتبار للجانب الروحي في العلاقات الاجتماعية، الذي لا يقوم على المنفعة المادية بقدر ما يقوم على مبدأ الثواب والجزاء.

ولذلك كانت قيم الفضل أساسية في استمرار المجتمعات وقيام العمران الإنساني، ولا سبيل لإقامة العمران إقامة صحيحة إلا بتأسيس العلاقات الإنسانية على مبادئ الفضل.

٣. قيم الفضل في الأسرة وتجاوز التحديات العمرانية المعاصرة

إنّ مشكلتنا اليوم هي انسياق المجتمعات الإسلامية التراحمية إلى النمط التعاقدي الذي لا يمثّل جوهر التصوّر الإسلامي للاجتماع البشري، وهو تحدّ معاصر لا يمكن تجاوزه إلا بإشراك الأسرة طرفا في مواجهة هذه المادية الشرسة، وذلك من خلال تأسيس الأسر على قيم الفضل التي جاء الإسلام ليُرسيها في الأسرة وليؤسّس العلاقات الإنسانية في رحابها، على اعتبار الشريعة الإسلامية شريعة عدل وفضل، يقول الإمام ابن تيمية: "الشرائع ثلاثة: شريعة عدل فقط وشريعة فضل فقط وشريعة تجمع العدل والفضل

Copyright © 2024 JCMS

فتوجب العدل وتندب إلى الفضل وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي شريعة القرآن الذي جمع فيه بين العدل والفضل" (ابن تيمية، ١٩٩٩، ج٥، ص٥٨-٥٩).

ولذلك ينبغي النظر إلى الأسرة باعتبارها شريكا في إقامة شريعة العدل والفضل الضرورية عند الصناعة العمرانية للمجتمعات، فالحديث عن كون الأسرة هي نواة المجتمع ليس محض تعبير مجازي بليغ، ولكنها حقيقة ينبغي أخذها بالاعتبار والعمل على تفعيل دور هذه النواة في تحقيق المقصد العمراني الذي جاء الإنسان ليؤديه في الوجود.

فتحدي انتشار المادية اليوم حتى في المجتمعات المحمية بالتصور الإسلامي والثقافة العربية هو تحدّ ينبغي التصدّي له ولا سبيل إلى ذلك إلا بتأسيس الأسرة على وفق المنظومة القيمية الإسلامية، التي تحمي العدل بالفضل وتصون التعاقد بالتراحم.

فتأسيس الأسرة على مبادئ الفضل في التصوّر القرآني هو في الحقيقة تأسيس للعمران البشري على مبادئ الفضل، وذلك على اعتبار الأسرة هي المدرسة الأولى التي تلقّن الأفراد القيم والمبادئ، ولذلك فإنّ كلّ حديث عن إقامة العمران يتجاوز قيم الفضل ودورها في التأسيس للعمران، ويتجاوز الأسرة ووظيفتها في تأسيس قيم الفضل في الإنسان، سيكون محض خطاب لا انعكاس فعليا له، لأنه يغض الطرف عن الوسائل الأنجع لتحقيق المقاصد الأمثل.

الخاتمة

إنّ النّظر في منظومة القيم القرآنية يفضي بنا إذن إلى أن ندرك بأنّ الأسرة ليست مجرد وحدة اجتماعية بسيطة، بل هي نواة تأسيس العمران وقوام الاجتماع البشري، والفضاء الأول لتأسيس منظومة القيم عند الفرد.

وتأسيسُ الأسرة على قيم الفضل، هو الوسيلة الأنجع لتأسيس مجتمعات التراحم وللوقوف أمام مدّ الحداثة واجتياح المادية، وهي المنظومات الدخيلة التي باتت تسعى لصنع مجتمعات جافة تتأسس على التعاقد المحض، وتلغي كلّ مظاهر التراحم وسماته.

Copyright © 2024 JCMS

وعليه فإنّ مقصد العمران الذي هو غاية الاستخلاف الإنساني، لا يمكن أن يتأتى إلا بتأسيس الأسرة على قيم الفضل، تلك القيم التي تؤسّسها الأسرة في الأفراد في إطار حفظ العقل، ويمارسها الأفراد في المجتمعات فيقام بممارستها الدين وتحفظ برحابها النفس ويزكو بها المال ويأمن بها العرض، فيقوم بذلك العمران في فضاء التعاقد وعلى أسس التراحم. وهو الأمر الذي يفضي إلى استقرار النوع البشري بقيم العدل واستمرار العلاقات الاجتماعية في ظل الفضل.

Copyright © 2024 JCMS

References

Al-Baqa'i, I. b. O. (1984). *Nudhum al-Durar fi Tanasub al-Ayaat wa al-Suwar*: Cairo: Dar al-Kitab al-Islami.

Al-Harali, A. A. (1997), *Turath Abi al-Hassan al-Harali fi al-Tafsir, edited by: Muhammadi Abdel Salam Al-Khayati*, Rabat: Manshurat al-Markaz al-Jami'I lil Bahth al-'Ilmi.

Ibn Hazm, (1961), *Al-Akhlaq wa al-Siyar (Risalah fi Muwat al-Nufus)*, Beirut: al-Lajnah al-Dawliyyah limTarjamat al-Rawa'ie.

Al-Asfahani R. (2007), *al-Dhari'ah Ila Makarim al-Shari'ah*, Cairo: Dar al-Salam. Ibn 'Ashur, M. T. (1984), Tafsir al-Tahrir wa al-Tanwir, Tunis: al-Dar al-Tunissiyah lil Nashr.

Ibn Kathir, I. b. O. (1999), *Tafsir al-Qur'an al-'Adhim*, Riyadh: Dar Taiba lil Nashir wa Tawzi'e.

Ibn Khaldun, A. R. (1981). *Al-'Ibar wa Diwan al-Mubtada wal-Khabar fi Tarikh al-'Arab wa al-Barbar wa man 'Asarahum min Dhawi al-Sha'n al-Akbar*, Baierut: Dar Al-Fikr.

Ibn Taymiyyah, A. b. A. A. (1999), *al-Jawab al-Sahih liman Baddala Din al-Masih*, Saudi Arabia: Dar Al-Asimah.

Al-Kafawi, A. A. Q. (1998), *al-Kuliyyat: Mu'jam fi al-Mustalahat wa al-Furuq al-Lughawiyyah*, Beirut: Muassasat al-Risalah.

Al-Mesiri, A. A. (2009), *Hiwarat with Dr. Abdel Wahab Al-Mesiri: al-'Ilmaniyyah, al-Hadathah wa al-'Awlamah*, Damascus: Dar Al-Fikr.

Al-Razi F. D, (1999), *Mafateeh al-Ghayb*, Beirut: Dar Ihyae al-Turath al-'Arabi

Reda, R. (1990), *Tafsir al-Manar*, Egypt: al-Hat'ah al-Mariyyah al-'Ammah lil Kitab

Al-Sha'rawi, M. M. (n.d), *Tafsir Al-Sha'rawi - Al-Khawatir*, Egypt: Akhbar Al-Youm Press

Al-Qurtubi, A. A. M. A. (1964) *Al-Jami` fi Ahkam al-Qur'an*, Cairo: Dar al-Kutub al-Misriyyah.

Al-Tabari, M. J. (2001), *Jami' al-Bayan 'an Ta'wil Ayi al-Qur'an* (1st ed.), Cairo: Dar Hijr li tiba'ah wa-Nashr wa-Tawzi' wa al-I'lan

Tilout, J. (2017), *Maqsid al-Usrah fi al-Qur'an: min al-Insan Ila al-Umran*. London: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation, p. 253-327

Copyright © 2024 JCMS